مبادىء إنسانية من السنة المحمدية

المحبة بين المؤمنين

للدكتور محمد سعاد جلال

الأستاذ بكلية الشريعة

عن ابن عمر رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان من عباد الله أناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله : قالوا فتخبرنا من هم يا رسول الله : قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوههم لنور ، وأنهم لعلى لنور ، ولا يخافون إذا فزع الناس . ثم قرأ قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

يكشف لنا هذا الحديث الشريف عن العناية الكبيرة فى دعوة السنة المحمدية إلى اصطناع المحبة بين المؤمنين واتخاذ هذه المحبة دينا يبلغ به صاحبه عند الله أعلى الدرجات ، وأكرم المنازل .

ان أصحاب هذه المحبة عباد الله ، آثرهم بنعمة التوفيق للحب ، ليسوا من طبقة الأنبياء ، ولا من طبقة الشهداء ، ولم تكن ميزتهم التى يعرفون بها إلا هذا الحب لإخوانهم فى الإيمان ، وشركائهم فى العقيدة ، أوتوا من كرامة الله يوم القيامة منزلة ، يغبطهم عليها الأنبياء ، والشهداء على علو درجات هؤلاء وهؤلاء ، فوجوههم نور ، وهم على مثال من نور ، مهما تفزع الناس من أهوال يوم القيامة ، ووقائعه ، فهؤلاء المتحابون فى ذات الله ، آمنة نفوسهم ، ساكنة قلوبهم ، مطمئنون لرحمة الله بهم ، لأنهم من ولاية الله وحمايته بحيث لا يمسهم الخوف . ولا يكسر نفوسهم الحزن هذا الحب العظيم الذى يكسب صاحبه هذه الدرجة العالية ، هو حب خالص لذات الله ، منزه عن الشوائب والأغراض الذاتية ، والمنافع الدنوية ، هو حب رفيع صاف كصفاء الفجر الطالع يفيضه صاحبه على إخوانه المؤمنين ، يقصد بما يفعل رضاء الله ، ومحبة الله وطاعة الله ، وتحقيق مقتضى الإيمان بالله ، الذى استدعى

أن يكون المؤمن أخا المؤمن ، وأن يكون المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وألا يرغب المؤمن بنفسه عن نفس أخيه ، فى السراء والضراء .

عند ما يتنزه الشعور بالحب عن المنافع الدنيوية والأغراض الشخصية ، عندما ينبثق فى القلب بعيداً عن دوافع القرابة والعصبية ، وتبادل الأموال والتجارات ، والمساندة فى الوظائف والأعمال ، عند ما ينساب هذا الحب من النفس الكبيرة المطبوعة على الخير ، كما ينساب الجدول الرقراق ، طروبا عذبا ، يلتمس طريقه إلى كل إنسان فى المجتمع بغير مقايضة ولا ثمن ، عندئذ يتحقق للجماعة التى يظل جوانبها هذا الحب الأعلى ، كل السلام ، وكل السعادة ، وكل الرفاهية .

ومن أجل هذا المعنى ، جعل جزاء أصحابه فى يوم القيامة ، السلام ، والنور ، والأمن والرفاهية .

وقد جاء فى الحديث القدسى : يقول رب العزة فى يوم القيامة : « أين المتحابون بجلالى . اليوم أظلهم فى ظلى ، يوم لا ظل إلا ظلى » وورد أيضا : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وذكر من بينهم ، رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه .

إن ثمرة العمل بالشريعة هو هذا الحب الذى ينفى من النفس شرورها وآثامها ، ويخرج من القلب الحقد والضغينة ، وإردة الثأر والانتقام . هذا الحب الذى يملؤ النفس بالتسامح والرضا ، والتماس المعاذير الكريمة لأغلاطهم وزلاتهم ، ويدعو إلى مقابلة الشر بالخير ، ودفع السيئة بالحسنة .

ما هو المقصود الأعظم من الشريعة فى الحياة الدنيا للعاملين بها ؟ هو هذا الحب الخالص للمؤمنين الذى لا يتم إيمان عبد مؤمن إلا به ، كما قال — صلى الله عليه وسلم — « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » .

الحب هو القوة الكبيرة التى تملك أن تحارب فى المجتمعات البشرية ، كل اسباب الاضطراب والخلاف ، وظواهر الخوف والريبة والتربص ، وهو اكثر من القانون والبوليس والحكومة ، هو السلطة البيضاء ، التى تحقق الأمن ، والسكينة والتعاون بين الناس وتهب لهم آخر طاقات القدرة على احتمال مصاعب الحياة ومفاجآتها .

وهذا الحب فضيلة واحدة ولكنه — بعد الايمان بالله ، واليوم الآخر ابو الفضائل كلها : فمن نبعه الصافى السلسال ، تزدهر شجرة التسامح ، والسخاء ، والمشاركة الوجدانية ، ويحيا التواضع والرفق ، وحسن الخلق ، وتزداد ثقة الناس بالحياة ، وتتجسم أمام ابصارهم ، معانى التفاؤل والامل والرجاء .

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : أن رجلا زار أخا له فى الله ، فأرصد الله له ملكا ، فقال أين تريد ؟ قال أريد أن أزور أخى فلانا ، فقال لحاجة لك عنده ، قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه . قال : لا . قال : فبنعمة له عندك ، قال : لا ، قال : فبم ، قال أحبه فى الله ، قال : فإن الله أرسلنى إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة .

هذا — هو الحب فى ذات الله — الذى أكدت طلبه السنة المطهرة ، وعنيت فى غير حديث بأن تصوره لنا ، بأكثر من صورة رائعة ، ومثل جذاب .

فلعلنا ، ولعلنا ، نستطيع أن نجعل هذا الحب يقيننا ، وشعارنا .